

جوهر الوجود والسلام: رحلة الأمير عبد القادر في تجسيد

الكينونة الإنسانية

بغداد مريم¹

1- كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة معسكر.

baghdoud.meriem@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/03/14؛ تاريخ القبول: 2025/04/18

**The Essence of Existence and Peace: Emir Abdelkader's
Journey in Manifesting the Human Condition** □

Baghdoud Meriem

Abstract: Emir Abdelkader's persona exudes a sublime humanitarian spirit that transcends narrow allegiances. He regarded all people as servants of God, whether they were his subjects or even the French colonizers. He recognized that the French did not come to Algeria as refugees in need of aid, but as invaders seeking to seize power; thus, his struggle was not driven by enmity, but rather by the futility of extending benevolence under such circumstances.

Rejecting all forms of violence and bloodshed, he resorted to military action only after repeated peaceful endeavors had failed. His confrontation with the French was not an end in itself, but a means to achieve lasting peace.

His noble ethics shone through in his treatment of prisoners. Rather than viewing them as defeated foes, he treated them as honored guests deserving of respect and care—even going so far as to summon a Christian priest to offer prayers for his Christian captives. This gesture embodied his broad religious and humanitarian vision.

Emir Abdelkader embraced dialogue with those of differing faiths, firmly believing that the divinely revealed religions originate from the same source, sharing common foundations while differing only in their outward expressions. Despite enduring personal suffering and exile, he harbored no malice toward Christians; indeed, he defended their rights and protected them, as evidenced by his advocacy on behalf of the persecuted Christians of Damascus.

Through such exalted conduct, his legacy ascends to the realm of the highest moral virtues, standing as a timeless symbol of peace and justice.

Keywords: The Humanitarian Stance; Tolerance; Peace; Dialogue; Peaceful Coexistence.

الملخص:

على مر القرون، عاش الجزائريون في ظل اضطرابات سياسية وأمن داخلي متردي، نتيجة امتداد سيادة الأتراك التي خلقت حالة من التدهور التدريجي في البنية الوطنية. ومع رحيلهم، بزغ فجر استغلال الاستعمار الفرنسي لطموحاته في الاستيلاء على الأرض والهوية. في خضم تلك التحولات التاريخية العاصفة، بزغ النور من خلال قرار محي الدين بأن تسند القيادة لشخص يتمتع بكفاءة صحية وعقلية راسخة، فقدم ابنه الأمير عبد القادر ليكون رمزا للأخلاق الرفيعة والإنسانية السامية.

وهنا تبرز الإشكالية الفلسفية العميقة التي طالما شغلت الفكر السياسي والأخلاقي: كيف يمكن لقائد حرب أن يجسد معايير السلم والرحمة في مواجهة عنف الاستعمار؟ الأمير عبد القادر، الذي ارتقى بفلسفة إنسانية مستلهمة من تعاليم الإسلام وتربية متفتحة، أظهر تضادا مثيراً؛ إذ دعا إلى الأخلاق الحميدة ومبادئ السلام في معاملة محكوميه وحتى مع من اعتبرهم خصوما، دون أن ينكر ضرورة اللجوء إلى العنف حينما باءت مساعي السلام بالفشل وخانتها التسامحات التي سخرها المستعمر الفرنسي.

إن هذه الدراسة تسعى إلى استقصاء عدة فرضيات محورية: أولاً، أن الأمير عبد القادر لم يكن مجرد قائد حرب، بل كان قادراً على تحقيق التوازن بين القوة والرحمة، متشبثاً بقيم دينية سامية متجذرة في الفكر الإسلامي. وثانياً، أن موقفه الراسخ في الدعوة إلى الحوار والصلح، حتى مع الفرنسيين، كان نتاج رؤية فلسفية تؤمن بأن لكل إنسان حقه في الكرامة، بغض النظر عن الانتماءات. كما سنستعرض من خلال مخطط البحث معاملته الإنسانية مع محكوميه، ورغبته في التوصل إلى صلح يضمن الحفاظ على هوية الوطن، فضلاً عن بعده الفلسفي الذي ظهر جلياً في علاقاته مع بعض القوى الفرنسية التي تجلت في صلح الستينات.

بهذا نستهل رحلة البحث التي تضعنا أمام تساؤلات عميقة حول طبيعة القيادة الإنسانية، وكيف يمكن للسلام أن ينبثق من رحم العنف في مواجهة

الاستعمار، ليتجلى الأمير عبد القادر كرمز خالد لفلسفة السلم في مواجهة العنف.

الكلمات المفتاحية: الموقف الإنساني؛ التسامح؛ السلام؛ الحوار؛ التعايش السلمي.

مقدمة:

على مر القرون، عاش الجزائريون في ظل اضطرابات سياسية وأمن داخلي متردي، نتيجة امتداد سيادة الأتراك التي خلقت حالة من التدهور التدريجي في البنية الوطنية. ومع رحيلهم، بزغ فجر استغلال الاستعمار الفرنسي لطموحاته في الاستيلاء على الأرض والهوية. في خضم تلك التحولات التاريخية العاصفة، بزغ النور من خلال قرار محي الدين بأن تسند القيادة لشخص يتمتع بكفاءة صحية وعقلية راسخة، فقدم ابنه الأمير عبد القادر ليكون رمزا للأخلاق الرفيعة والإنسانية السامية.

وهنا تبرز الإشكالية الفلسفية العميقة التي طالما شغلت الفكر السياسي والأخلاقي: كيف يمكن لقائد حرب أن يجسد معايير السلم والرحمة في مواجهة عنف الاستعمار؟ الأمير عبد القادر، الذي ارتقى بفلسفة إنسانية مستلهمة من تعاليم الإسلام وتربية متفتحة، أظهر تضادا مثيراً؛ إذ دعا إلى الأخلاق الحميدة ومبادئ السلام في معاملة محكوميه وحتى مع من

اعتبرهم خصوما، دون أن ينكر ضرورة اللجوء إلى العنف حينما باءت مساعي السلام بالفشل وخانتها التسامحات التي سخرها المستعمر الفرنسي.

إن هذه الدراسة تسعى إلى استقصاء عدة فرضيات محورية: أولا، أن الأمير عبد القادر لم يكن مجرد قائد حرب، بل كان قادرا على تحقيق التوازن بين القوة والرحمة، متشبثا بقيم دينية سامية متجذرة في الفكر الإسلامي. وثانيا، أن موقفه الراسخ في الدعوة إلى الحوار والصلح، حتى مع الفرنسيين، كان نتاج رؤية فلسفية تؤمن بأن لكل إنسان حقه في الكرامة، بغض النظر عن الانتماءات. كما سنستعرض من خلال مخطط البحث معاملته الإنسانية مع محكوميه، ورغبته في التوصل إلى صلح يضمن الحفاظ على هوية الوطن، فضلا عن بعده الفلسفي الذي ظهر جليا في علاقاته مع بعض القوى الفرنسية التي تجلت في صلح الستينات.

بهذا نستهل رحلة البحث التي تضعنا أمام تساؤلات عميقة حول طبيعة القيادة الإنسانية، وكيف يمكن للسلام أن ينبثق من رحم العنف في مواجهة الاستعمار، ليتجلى الأمير عبد القادر كرمز خالدا لفلسفة السلم في مواجهة العنف.

جوهـر الصفـح: التجلي الوجودي لصلح الأمير عبد القادر مع الفرنسيين

يبرز الأمير عبد القادر كرمز للفلسفة الإنسانية الراقية حتى في مواجهته للمستعمر الفرنسي، إذ تجسد نظريته للإنسانية روح الرحمة والتعاطف في كل الظروف، سواء في أوقات النصر أو الهزيمة. كان يرى في كل بشر عباد الله، وهو المبدأ الذي انعكس في خطابه ومداولاته مع القادة المحتلون؛ فقد جاء في إحدى مداولاته الفلسفية:

﴿لو أنا نعلم أنّ وطنكم ضاق عنكم وجئتمونا طالبين أن نفسح لكم لتعيشوا معنا، لما تردّدنا في التنازل لكم عن أرض تسعكم وتأويكم إلى جوارنا؛ فالأرض أرض الله وأنتم عباد الله، لكنكم جئتم كغزاة محتلين، وهذا ما أوجب علينا الدفاع عن وطننا بكل السلاح.﴾ (عشراتي سليمان، 2009: 46).

يتضح من ذلك أن إنسانيته لم تكن محدودة بحالة النصر أو الهزيمة، بل كانت ركيزة ثابتة في تعاملاته مع الجميع؛ فهو لم يرض بقدوم الفرنسيين إلى أرض الجزائر بغية الاعتداء والتدمير، وإن كان ليرحب بهم في حال أتوا ساعين إلى مساعدة شعبه وبناء حضارة تشاركية.

وقد شق الأمير عبد القادر كل الدروب لتحقيق الصلح، حيث بلغ حرصه على نقل رؤيته السلمية ذروتها حينما كتب إلى ملكة فرنسا، مناشداً تدخلها لدى زوجها بصفتها رمزاً للحنان والعاطفة الرفضية للعدوان. وفي رسائله تلك، عبّر عن أمله في رؤية الفرنسيين يأتون إلى وطنه ليس

كمقاتلين، بل كشركاء في بناء حضارة تركز على قيم الإنسانية والرحمة، رغم أن جميع مراسلاته بقيت دون ردّ.

لم تقتصر محاولاته على المخاطبة الرسمية فقط؛ فقد كتب حتى إلى زوجة ملك فرنسا، معتقداً أن حضورها الحنون يمكن أن يكون جسراً لتوصيل رسالة السلام والتعاون، متشبّهاً في ذلك بعباء المرأة التي تمثل العاطفة التي ترفض النزاع والقتال. (العربي إسماعيل، د (س): 186).

وتجلى إنسانيته في أعماق لحظات الصراع، حينما كان ينزل الفرنسيين بأرض الوطن؛ إذ أرسل إلى بعض القسيسين مجموعة من الماعز، معبرا بذلك عن استعداده لتقديم يد العون في مهمتهم الإنسانية والإحسانية. وكان هذا القسيس قد أسس داراً لليتامى جمع فيها أطفالاً جزائريين، مما يبرز كيف تحطّى الأمير حدود الانتماء الديني والسياسي، وتعامل مع الآخرين من منطلق الإخاء الإنساني الخالص. (عشراتي سليمان، 2009: 247).

ورغم أن هذا القسيس كان فرنسي الجنسية، لم يتوان الأمير عبد القادر عن تقديم المساعدات له، وهو ما يبرهن على أن رؤيته الإنسانية تجاوزت متطلبات الحرب والانتقام، لتشكل رؤية شمولية تركز على الحوار والإنسانية في أحلك الظروف.

جوهرة الإكرام: التجلي الوجودي لمعاملة الأمير للأسرى:

يعد الأمير عبد القادر رمزا للفلسفة الإنسانية النبيلة، إذ تجسّد في معاملة أسرى الحرب منهجاً يرتكز على شموخ المبادئ والأخلاق الإسلامية الرفيعة، حيث لم يكن يقتصر نزعه الإنساني على أوقات النصر فحسب، بل امتد ليشمل أعمق لحظات الانكسار والظلم. فقد حرص الأمير على تفعيل قوانين الحرب في الإسلام بدقة، ما جعله يرفض بشدة الانزلاق إلى فخ الوحشية والانتقام. ففي هذا السياق يقول أحد المؤرخين: "وأجمع المؤرخون من أجنب وأنصار على أن سلوكيات الأمير عبد القادر كانت تتسم بالفروسية والإباء والإنسانية، فمنع تحت طائلة العقوبة قطع الرأس أو أي أعمال وحشية على الرغم من أن أعدائه كانوا يمارسونها... ولكن الأمير عبد القادر كان يتقيد بشكل دقيق بقوانين الحرب في الإسلام، وكان جميع الأسرى يرتعدون خوفاً قبل وصولهم إلى معسكراته، لكن سرعان ما يفاجؤون بإنسانية المقاتل الجزائري وحسن معاملته وكرمه، أما سلوك الغزاة العكس تماماً" (بديعة حسني الجزائري، 2002: 56).

ولم يكن هذا الالتزام نظرياً مقتصرًا على إظهار الوجه الرحيم عند الوصول إلى المعسكرات، بل امتدّ إلى حرصه على عدم المساس بكرامة من اختلطت صفوفهم دماء الأعداء مع دماء الأبرياء. فقد التزم الأمير بعدم المساس بجسد القتلى الفرنسيين، ورفض تعذيب الشعب الفرنسي، وأمر بعدم قتال الفرنسيين العزل؛ إذ كان يرى أن الإنسانية لا تعرف حدوداً بين المقاتل والمسجون.

ومن ناحية أخرى، أظهر الأمير عبد القادر حساً بالغاً بالكرامة الإنسانية للمرأة، فكان يستشعر بأن رؤية النساء أسرى تخلف جرحاً أخلاقياً عميقاً في ضميره. وفي إحدى المناسبات، حين أحضر له فرسان أحد خلفائه أربع فتيات كغنيمات، أدار وجهه اشمئزاً وقال في سخرية: "إنّ الأسود تهاجم الحيوانات القوية، أما أبناء آوى فتسقط على الضعيفة منها". (هنري تشرشل، 2009: 263).

ولم يقتصر اهتمامه على الحماية اللفظية فقط؛ فقد أقرّ بأهمية حفظ كرامة الأسرى في كل تفاصيل معاملتهم، حتى أنه أصدر قراراً رسمياً يلزم معاملتهم بالرفق، وفي موقف يؤكد ذلك حدث ما يلي: "وبعد نشر ذلك القرار علم الأمير عبد القادر أن أحد جنوده النظاميين قد ضبط وفي يده رأس أحد الفرنسيين... فوقف محاطاً بقواده العسكريين والمدنيين، وقيد الجاني إلى الأمام، كما وضع رأس الفرنسي أمام السلطان، فسأل عبد القادر موجهها كلامه إلى السجين:

-هل كان صاحب هذا الرأس ميتاً أو حياً قبل أن تقطع رأسه؟

-ميتاً.

-إذن فإنك ستضرب مائتين وخمسين جلدة لعصيانك أوامري، إن هذه العقوبة ستعلمك أنه من الجبن والقسوة أن تمثل بالميت، ما دام لم يعد عدواً لأحد". (هنري تشرشل، 2009: 269)

بهذا التصرف الحازم، لم يكن الأمير يُظهر إلا حرصه على أن يكون الإحسان والعدالة شريكين لا ينفصمان، فقد عاقب أحد جنوده الذي اعتدى على جثمان فرنسي متوفى بصرامة، مؤكداً أن المساس بالكرامة الإنسانية يُعدّ خيانة للمبادئ التي يقوم عليها حق السلم.

كما حرص الأمير على غرس هذا المبدأ في نفوس رجاله، إذ كان يخاطبهم قائلا: ﴿على كل عربي يحتفظ بفرنسي أو مسيحي في حوزته المسؤولية في الطريقة التي عامله بها...﴾ مُشيرًا إلى أن أي إساءة تُرتكب بحق الأسرى تؤدي إلى حرمان من يستغلهم من المكافأة المستحقة، وهو ما يبرز تباينه الواضح مع سلوكيات المحتلين الفرنسيين الذين كانوا يمارسون وحشية بالغة في تعاملهم مع أسرهم. (برونو إيتين، 2001: 210).

ولا بد من الإشارة إلى خطابه التي وُجّهت للفرنسيين، والتي عكست إيمانه الراسخ بأن الإنسانية هي جسر للتواصل والحوار. ففي إحدى خطابه قال: "إننا لم نميز أبداً بين الأسرى ورجالنا بخصوص الطعام والمأوى، وحالما رأينا أنّ بين الأسرى رجالاً ذوي مراتب وشرف يزددون باللجوء إلى الفرار، ميزناهم عن غيرهم بما يناسبهم، وقد كانوا معترفين بالجميل، و اقترحنا أن نطلق سراحهم وإنّ القائد كونيور يعرف جميع الترتيبات التي كانت تُتخذ لتحريرهم وهو يعرف أيضاً إننا لم نتصل بأي

رد على رسائلنا، وأن الصمت الساخر كان السبب في قطع التفاهم بيننا وبينكم". (برونو إيتين، 2001: 304).

إن معاملة الأسرى بالنسبة للأمير عبد القادر لم تكن مجرد قرار استراتيجي بل كانت انعكاساً لرؤية فلسفية تركز على تقديس الكرامة الإنسانية؛ فقد كان يستقدم قسيساً لصلاة الأسرى، ويحرص على أن تعاملهم أنصاف المعاملة مع جنوده، إذ كان يُبدي اهتماماً بالعا بتوفير الطعام والمأوى المناسب لهم، حتى وإن كان ذلك يعني التنازل عن فائض الموارد لصالح من هم في أمس الحاجة إليها.

وتجلت روح التعاون والحوار الحضاري في رسائله الموجهة إلى الملكة أميلي، حيث دعاها إلى أن يتحالفوا لبناء حضارة تركز على التعاون بين الشعوب، بعيداً عن روح الغزو والأنانية التي كانت تسيطر على الفكر الفرنسي في ذلك الزمان. (بوطالب عبد القادر، 2009: 105، 106)

ولم يتوان الأمير عن دعم العلم وتعلم اللغات كوسيلة للتقارب بين الحضارات؛ فقد سمح بتعليم اللغة العربية للألمان الراغبين في دراستها، مؤكداً أن تبادل المعرفة هو أحد أعمدة الانفتاح والحوار بين الشعوب. (يوهان كارل بيرنت، 2009: 152)

وكان لسياساته التعليمية دور فعال في نشر العلم، إذ خصص مبالغ لدعم طلاب العلم وشيوخ الزاويا ورعاية المؤسسات الدينية والثقافية، مما

يدل على حرصه على بناء جسر من المعرفة والثقافة يتخطى حدود العداء والصراع. (الراسي جورج، 2008: ص 34).

وعلى صعيد المنفى، ورغم عرض نابليون راتباً شهرياً يكفي للرفاهية، اختار الأمير عبد القادر أن يخصص جزءاً منه لتلبية احتياجات من وقفوا إلى جانبه، مؤكداً بذلك أن الرفاهية الشخصية لا تغني عن الروح الإنسانية التي تتعاطى مع معاناة الآخرين. (عشراتي سليمان، 2009: 347، 348).

وفي ختام المسيرة، لا يسعنا إلا أن نذكر أن تأثر الأمير عبد القادر بالصوفية أضفى على شخصيته بُعداً روحانياً فريداً، إذ كان يرى في كل مخلوق عبد الله، وأن التقوى تتجاوز المنطق البشري لتصبح مرجعاً للتعامل الرحماني مع الجميع. (عشراتي سليمان، 2009: 46).

بهذه الممارسات والتوجهات الراسخة، يظل الأمير عبد القادر مثلاً خالداً لفلسفة إنسانية سامية، حيث امتزجت مبادئ الإحسان مع التزام الصرامة في حفظ الكرامة، ما جعله قدوة في كيفية التعامل مع الأسرى والأعداء على حد سواء في زمن اشتدت فيه مخالب العنف والظلم.

3-تناغم الوجود: التجلي الوجودي لحوار الحضارات وتعايشها عند الأمير:

يرى الأمير عبد القادر أنَّ الاختلاف بين الأديان ليس إلا تجلياً لتعدد الوسائل التي يعبر بها الإنسان عن قيمه العليا، إذ اعتقد بأنَّ الدين الإسلامي جامع لأفكار جميع الأديان، متكللاً بروح وحدة الخالق. يقول في هذا الصدد: "فالدين المحمدي جامع لكل ما تفرق في الأديان والشرائع، كما قال المسيح عليه السلام: ما جئت لأبطل التوراة ولكن جئت لأكمّله، فكذلك محمد عليه السلام: ما جاء ليبطل التوراة والإنجيل ولكن جاء ليكملهما، فالتوراة جاء بقصاص النفس بالنفس، والإنجيل جاء بالعفو: إذا لطمك أخوك على خدك الأيسر ضع له خدك الأيمن، والقرآن جاء بالقصاص في قوله: كتب عليكم القصاص في القتلى، وبالعفو في قوله: فمن عفا وأصلح فأجره على الله... ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (الأمير عبد القادر، د (س): 188، 18).

وهكذا تكمل الأديان السماوية بعضها البعض؛ فالمسيح عليه السلام أقرّ ما ورد في التوراة مضيفاً رؤى جديدة، والإسلام أكد ما جاء في التوراة والإنجيل، معترفاً بنبوّة موسى وعيسى عليهما السلام. وبينما تتشارك الديانتان مفاهيم التسامح والأخوة الإنسانية، كما عبّر الإنجيل عنها بـ﴿إذا لطمك أخوك على خدك الأيسر ضع له خدك الأيمن﴾، فإنَّ الإسلام صاغها بصيغة ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾، مضيفاً ما يثري معاني مكارم الأخلاق في قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إنّما بعثت لأتمم

مكارم الأخلاق❦. ويُذكر أن نزعة الأمير الإنسانية كانت الدافع الأساسي لقبوله الحوار بين الديانات، دون أن يتحجر في تعصب ديني ضيق.

كان الأمير عبد القادر متصالحاً مع كل الأديان، حتى مع الدين المسيحي الذي كان يُمثل هوية المستعمر الفرنسي. فكما يقول السيد فؤاد صالح: "وإن المتأمل في التسامح الديني الذي عُرف به الأمير عبد القادر في أثناء وجوده بالجزائر وخارجها منفياً، يدرك أنّ الرجل كان على مستوى من الوعي الإنساني، المتفهم لحقيقة الإنسان والإنسانية التي لا تؤمن بالحدود والحواجز والعراقل بين البشر، وخير دليل على ذلك تصريحه في كنيسة المادلين في فرنسا عندما كان منفياً ... قال: حينما بدأت مقاومتي للفرنسيين كنت أظن أنهم شعب لا دين له، لكن تبينت غلطتي، وعلى أيّ حال فإن مثل هذه الكنائس ستقنعني بخطئي"، (السيد فؤاد صالح، 1985: 117).

تجلت نزعة الأمير الإنسانية أيضاً في جهوده لإخماد فتنة الستينات منذ بدايتها وقبل أن تمتد إلى أربعة عشر يوماً، إذ لجأ إلى الوسائل السلمية والدبلوماسية دون التهاون في حماية الأبرياء، حيث استعان ب❦الوالي التركي أحمد باشا، ولم يترك الأمير عبد القادر باباً إلا ولجه، فاجتمع بالأعيان مخاطباً إياهم: إن الأديان وفي مقدمتها الدين الإسلامي أجل وأقدس من أن يكون خنجرة جهالة، أحذركم من أن تجعلوا لشيطان الجهل فيكم نصيباً، وهب الأمير يجمع الرجال المغاربة ويرسلهم إلى الأحياء المسيحية لرد المهاجمين ودعوتهم إلى التعقل، وفتح بيته للفارين من

النصارى... ومع انتهاء فصول هذه المأساة استطاع الأمير ومعاونوه أن ينقذ خمسة عشر ألف نسمة يتمون إلى الكنيسة الشرقية... من الموت" (بن السبع عبد القادر، د (س): 57، 58).

إنه من هذا المنطلق أن يدعو الأمير إلى التعايش بين الديانات والشعوب، فقد سعى جاهدا لتفادي اندلاع الفتن الطائفية قبل وقوعها؛ إذ خاطب الوالي التركي طالبا المساعدة وخاطب مسلمي دمشق من أجل التراجع عن أعمالهم اللاأخلاقية، وسارع لإنقاذ المسيحيين، حيث استمر في نصرة المظلومين وإنقاذهم من مآسي القتل، إذ يُروى أنه ﷺ وبقي الأمير عبد القادر أربعة عشر يوما لنصرة المظلومين وإنقاذهم من القتل وأشرف على تطبيب الجرحى، وقام على تعزية الثكلى والأرامل واليتامى، وكان يقضي أكثر الليالي ساهرا وبندقيته في يده حرصا على من في حماه، فإذا غلب عليه النعاس أسند رأسه إلى فوهتها وغفا، وبلغ عدد الذين أنقذهم الأمير عبد القادر ممن التجأوا إليه نحو خمسة عشر ألف شخص من أعيان النصارى والربهان... وطلب منه جماعة من النصارى أن يؤمن لهم طريق الوصول إلى بيروت ففعل" (إباضة نزار، 1994: 17).

كان الأمير يتصف برؤية شمولية تتجاوز حدود الانتماء العرقي أو الديني؛ فقد تكفل بالمسيحيين الذين تعرّضوا للاضطهاد في دمشق، مما يدل على أنه لم يكن رجلا جزائريا ظالما أو حقودا بنزعة انتقامية. كما تجلت إنسانيته في صلح الستينات، إذ حاول جمع شمل سكان جبل لبنان، الذين

بالرغم من وحدتهم الجغرافية، تناحروا بسبب الاختلافات الدينية، لكن روح الأمير الموضوعية والإنسانية كانت سببا في وقف هذا النزاع، إذ رفض الصراع مهما تنوعت أطرافه، مفضلا حفظ دماء البشر.

وفي إحدى ردوده على رسائل الشكر التي تلقاها، أكد الأمير عبد القادر: "والذي بلغكم عنا ورضيتم به منا من حماية أهل الذمة والعهد والذب عن أنفسكم وأعراضكم بقدر الطاقة والجهد هو □ كما في كريم علمكم □ مقتضى أوامر الشريعة السنية والمروءة الإنسانية، فإن شريعتنا متممة لمكارم الأخلاق، فهي مشتملة على جميع المحامد الموجبة للتآلف... والبغي في كل الملل مذموم وخيم مرتكبه" (بن السبع عبد القادر، د (س): 58).

لم يكن موقفه هذا مجرد رد فعل على معاناة الأبرياء، بل كان تجسيدا حقيقيا للقيم الإسلامية العليا التي تدعو إلى حماية المظلوم وإكرام أهل الذمة. وقد نال الأمير تقديرات وشهادات من مختلف أطراف العالم؛ من المسلمين والأتراك إلى غير المسلمين والفرنسيين، مما أكد أن قيادته لم تستمد من الأهداف السياسية الضيقة فحسب، بل كانت تركز على فضائل خلقية تنبثق من روح الإسلام وقيم المجتمع الجزائري.

ولعل أبرز ما يؤكد إنسانيته، هو موقفه الثابت أثناء الحرب والاختبارات الكبرى؛ فقد كان لا يؤذي الشيوخ ولا الأطفال، مؤسسا بذلك الدولة الجزائرية الحديثة، والذي لم يأت ذلك إلا بعد جهود جبارة اقترن فيها العلم والعمل لتحديث واقع فاسد خلفه الحكم التركي. كما يروى أنه

توجه إلى الأستانة، فخرج من دمشق 27 ذي القعدة وأقام هناك شهرين وزار السلطان عبد العزيز، وتوسط لديه في العفو عن المساجين والمنفيين الذين أدينوا في فتنة الستين، ومنحه الوسام العثماني من المرتبة الأولى، ثم توجه إلى باريس وكان غرضه تهدئة الخواطر بعد الفتنة، ثم رجع إلى باريس، فزار قصر فرساي وشاهد صور الحروب الفرنسية بينه وبين فرنسا وهي تصور انتصار خصومه عليه فقال لمدير القصر: لماذا لم تثبتوا صور الحروب التي انهزمت فيها جيوشكم فضحك المدير وسكت" (إباضة نزار، 1994: 27).

ولم يقتصر دور الأمير على إنقاذ المسيحيين فحسب، بل كان يسعى لتصفية القلوب بين المسلمين والمسيحيين، مؤكداً بذلك أن التقدير الخاطئ للإسلام لدى الغرب ينبع من جهلٍ بمعانيه الأصلية. وقد قال: "ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون" (سورة المائدة، الآية).

لقد صحح الأمير عبد القادر المفاهيم المغلوطة التي بنّاها الغرب عن الإسلام، فبينما كان يُتهم بأنه دين حرب أو دين الغازية، بين هو بأن الإسلام دين السلم والرحمة، وأن الاتهامات الموجهة إلى المسيحيين ليست إلا جزءاً من الصورة المنحرفة التي رسمها التاريخ. وفي موقف صارخ، عندما قُدم له رأس مصطفى بن إسماعيل، قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون"، وأمر بدفن الرأس منعاً لإساءة التمثيل،

ما أثار دهشة الفرنسيين لفقدانهم حليفاً وفياً. (بلخوجة عمار، د (س): 60).

ومن هنا تتجلى إنسانية الأمير عبد القادر في رسالته التي وجهها إلى حكومة فرنسا بعد سقوط الملكية، حيث قال: "وإن نقمت ما جرى بيني وبينكم من الحروب التي اتصلت عدة سنين فما أظن أن أحداً ممن على وجه الأرض من البشر ينكره علي أو يذمني به لأنني رجل أوجب علي ديني أن أدافع عنه وعن أرض أهله المتمسكين بعروته الوثقى فقامت بذلك، وبذلت وسعي فيه ما استطعت" (بوعزيز يحيى، 1964: 75).

إن التمسك بالمبادئ الدينية والإنسانية لدى الأمير عبد القادر لم يكن مدفوعاً بمصالح شخصية أو سياسية، بل كان دعوة صادقة للدفاع عن الوطن وحقوق الإنسان. فقد حمل السلاح لطرد المستعمر وليس للانتقام، وكان يؤمن بأن الشعب هو السيد الحقيقي، إذ كان يرنو إلى بناء دولة قائمة على العدل والكرامة، ويحث أبناء قومه على الوفاء بالعهود والترابط في مواجهة الخيانة. كما أكد قائلاً: "فالأمير عبد القادر عاهد رب العالمين على الجهاد ومقاومة الشر والظلم" (بوعزيز يحيى، 1964: 75).

ولم تقتصر إنجازاته على ميادين الحرب والنضال، بل امتدت إلى المجالات الدبلوماسية والتربوية؛ فقد عقد معاهدات واضحة مع الفرنسيين، عين سفراء يمثلونه في الخارج، وأصدر قوانين للاعتناء بالأسرى، مما سبق نصوص معاهدة جنيف بكثير من السنوات. ويُستشهد في ذلك بعبارة:

"أعطى الأمير تعليماته بالاهتمام بالأسرى وعدم تركهم عرضة للاختطاف من قبل المتعاونين مع الأعداء، وكانت سياسته تضع أهمية كبرى لتبادل الأسرى هذا الحق الدستوري في سائر الحروب" (بديعة حسني الجزائري، 2002: 9).

وتبرز أيضا نزعة الأمير في عالم الأدب الصوفي، إذ تظهر آيات من قصائده التي تؤكد وحدة الأديان السماوية؛ فهو تارة يظهر بوجه المسلم الزاهد، وطارة يتجلى في هيئة الراهب الذي يسرع إلى الكنائس، وتارة يدرس التوراة في مدارس اليهود، مما يدل على رغبته في فهم الآخر واستيعاب معانيه الحقة. (الأمير عبد القادر الجزائري، 2005: 20).

كان الأمير على يقين بأن كل الديانات منزلة من إله واحد، فلا اختلاف بينها في الجوهر، وإنما تختلف في الصياغة والتعبير. ويُختتم ذلك ببيان واضح له: "لو أصغى إلي المسلمون والنصارى لرفعت الخلاف بينهم، ولصاروا إخوانا ظاهرا وباطنا لكن لا يصغون إلي". (الأمير عبد القادر، د (س): 107).

وفي ختام المسيرة، يتبين أن الأمير عبد القادر سعَ لخلق صلح وحوار بين أصحاب الديانتين المسيحية والإسلام، وإن كان ذلك يتطلب توافقا من الطرفين، وهو أمر كان بعيد المنال في ظل الانقسامات الطائفية التي شهدتها لبنان وسوريا. ففي تلك الفترات الحرجة، لعب الأمير دور الوسيط الذي ساهم في وقف نزيف الدماء وإعادة روح المحبة والإخاء بين أبناء الشعب

الواحد، كما يظهر في قوله: "وقعت حوادث طائفية خطيرة في كل من لبنان وسوريا، حين كان الأمير عبد القادر يعيش في دمشق قام بدور هام في حقن الدماء، وإعادة روح المحبة والإخاء بين أفراد الشعب الواحد، فقد كان سكان جل لبنان ثلاث طوائف هي: الدروز والنصارى والمسلمون، واشتعلت بينهم نار الحرب والفتنة، دامت عشرين سنة، ثم امتدت إلى سوريا، فالتهمت الأموال والنفوس، وحاول الأمير وقف الحرب بالحنسنى والنصح". (كبير سليمة، د (س): ص22).

لقد أثبت الأمير عبد القادر في كافة مواقفه، سواء في دمشق أو خلال المفاوضات الدبلوماسية مع فرنسا، أنه يتمتع بفكر رفيع وأخلاق سامية تتحدى حدود العنف والانقسام، محافظاً على عهد الوفاء ومُكرِّماً للعهد في كل زمان ومكان. ففي مراسلاته ونشاطه الدبلوماسي أظهر وضوح الرؤية والتزاماً صادقاً بتحقيق السلام، إذ تبادَل التمثيل الدبلوماسي مع الحكومة الفرنسية وتعيين سفراء يمثلونه في شؤون الدولة، مما أكّد حرصه على تطبيق السلم وإرساء أسس التعامل الحضاري الراقى. (بن داهة عبد القادر، د (س): 131).

الخاتمة:

كان الأمير عبد القادر حريصاً على أن تكون الدولة خادمة للشعب، وأن تُعطى الحقوق لأبناء الوطن دون تفرقة أو تمييز، مستنداً في ذلك إلى أوامر الشريعة والإنسانية التي ترسخ قيم السلام والعدل. فقد أصدر

قوانين تنص على الاعتناء بالأسرى وضمان سلامتهم، وهو ما سبق بكثير ما جاءت به نصوص معاهدة جنيف، كما جلت نزعة الإكرام في تعامله مع ضيوفه من الفرنسيين. (بديعة حسني الجزائري، 2002: 9).

يتضح أنّ الأمير عبد القادر، بمنطلقه الإنساني الراقى وفلسفته الدينية الشاملة، حاور العالم بأسره حتى في مواجهة الاستعمار، رافضاً التمييز ومُعلِّياً من قيمة الحوار والتعايش بين الحضارات. لقد كان دائماً مثلاً على أنّ معارك الإنسان ليست مجرد صراعات على السلطة، بل معارك للكرامة والإنسانية، وهو ما جعله قدوة للأجيال في فن مواجهة الظلم بالدبلوماسية والحكمة.

المراجع:

- محمد سعيد، (1951). مذكراتي عن القضايا العربية والعالم الاسلامي، الجزائر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية.
- عبد القادر الجزائري د (س)، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، بيروت: دار اليقظة العربية.
- بديعة حسني الجزائري، (2002)، وما بدلوا تبديلاً تفاصيل دقيقة عن جهاد الأمير عبد القادر الجزائري ودولته وهجرته، دمشق: دار الفكر.
- فؤاد صالح، (1985)، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفاً وشاعراً، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- إسماعيل العربي، (2007)، الأمير عبد القادر الجزائري مؤسس دولة وقائد جيش، الجزائر: وزارة الثقافة.
- بوطالب عبد القادر، (2009)، الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية - من الأمير عبد القادر إلى حزب التحرير، الجزائر: منشورات دحلب.

-برونو إيتين، (2001)، عبد القادر الجزائري، الجزائر: مؤسسة الاتصال والنشر والإشهار.

-بلخوجة عمار، د(س)، الأمير عبد القادر لا سلطان ولا إمام، الجزائر: منشورات ألفا قصر المعارض.

-بن داهة عدة وآخرون، الأمير عبد القادر عبقرية في الزمان والمكان، الجزائر: مكتبة الرشاد.
-بن السبع، عبدالرزاق، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، الكويت: مؤسسة جائزة سعود الباطني للإبداع الشعري.

-جورج، الراسي (2008)، الدين والدولة في الجزائر من الأمير عبد القادر ...إلى عبد القادر، الجزائر: دار القصبة للنشر.

-يوهان كارل بيرنت (2009) الأمير عبد القادر، تر: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر.
-بوعزيز يحيى، (1964)، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الجزائر: دار الكتاب الجزائري.

-نزار أباطة، (1994) الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد، سورية: دار الفكر.
-كبير، سليمة، د (ت)، من أعلام الجزائر في العصر الحديث الأمير عبد القادر، الجزائر: المكتبة الخضراء.

-هنري تشرشل، (2009)، حياة الأمير عبد القادر، الجزائر: عالم المعرفة.

للإحالة على هذا المقال:

-الكاتب، (السنة)، «عنوان المقال». المواقف، المجلد: ، العدد: ، الشهر السنة، ص. ص.